هيلعلا وه

ةّيدوبعلا ةقيقحلا ىنعم

٢٨ ةرضاحلا - يّرصبلا نانوعلا حيرشت حيدث

اهاقلأ
يّناهرلاطلا يّنيسحلا نسحم دّمحم دّيسلا ّجاحلا الله ةيآ
هرس الله سدق

@MadrastAlwahy

أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم
بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم
وَصلَّى اللهُ عَلى سَيِّدِنا وَحَبيبِنا، أبي القاسِمِ المُصطَفى مُحَمَّد
وَعَلى آلِهِ الأطْيَبينَ الأطْهَرينَ الهُداةِ المَعصومينَ
السَّيِّما بقيَّةِ اللهِ في الأرَضينَ، أرواحُنا لِتُرابِ مقدَمِهِ الفداء
وَاللَّعنَةُ عَلى أعدائِهِم وَمُخالِفيهِم ومُنكِري حُقوقِهِم وَفَضائِلِهِم وَمَثالِبِهِم
إلى يومِ الدّين

ما هو العلم الذي يقي الإنسان من الانحراف

يدور الكلام - إلى حدّ ما - حول الفقرة الأولى من حديث عنوان البصري الشريف، ووصايا الإمام الصادق عليه السلام إلى عنوان بخصوص كيفيّة حصول العلم، وتحقيقه، وأنّ العلم عبارة عن انكشاف يُتيح للإنسان تمييز طريق الغواية عن طريق السعادة، ويقيه من طرق الشكّ والانحراف عليه في طريقه؛ فهذا الذي يُقال له العلم؛ هو عبارة عن نور - بسبب هذا النور - يجعله الله في قلب المؤمن الذي يُريد تعالى أن يهديه؛ فلا يستطيع أيّ أحد أن يخدعه، ولا تتمكّن الآراء المختلفة بعد ذلك من أن تُحدث فيه آثارًا سيّئة؛ فلو وقف كلّ العالم في جانب واحد [مخالف]، فإنّ ذلك المؤمن يبقى متشبّثًا بعقائده ومبادئه بشكل راسخ وصلب، بل كلّما ازداد عدد المعارضين، زاد تشبّثه بمبادئه؛ فهذا هو العلم، والذي أشرنا إلى أنّه لا يتحقّق بالمطالعة والحفظ. فما أكثر الذين بلغوا مراتب عالية في الدرس والتعليم، لكنّهم سقطوا في وادي الانحراف والغواية والضلال.. لماذا؟ لأنّ ذلك العلم والنور، وتلك الحقيقة ظلّت كلّها مجهولة لديهم؛ فمع أنّهم لم يكونوا من المُعرضين، بل كانوا يهدفون من خلال حركتهم إلى إصلاح أمور المسلمين والمجتمع والناس المحيطين بهم؛ لكن، بما أنّهم كانوا يفتقرون إلى ذلك العلم، فإنّهم عانوا من تلك المشاكل، وظلّت الحقائق مستورة عن أعينهم، ولم يتمكّنوا من بلوغ الهدف المنشود كما ينبغي؛ فكلّ ذلك يرجع إلى غياب ذلك العلم.

وبوسعكم العثور على هذه الحقيقة بين أصحاب الأئمّة عليهم السلام؛ والذين كانوا يتقسمون إلى خواصّ وعوام؛ ففي بعض الأحداث، كان زرارة من أصحابهم عليهم السلام يساقون وراء بعض التيّارات؛ في حين أنّ الخواصّ منهم كانوا يتميّزون بالهدوء؛ فيلزمون أماكنهم، ويتّخذون موقفًا مغايرًا تجاه تلك التيّارات وتلك الأحداث؛ والسبب في ذلك هو أنّهم حازوا على بعض المراتب [العالية]؛ فصارت لهم على أساس ذلك رؤية خاصّة، وتوجّه معيّن. لقد تحدّثنا لأسطر عن هذه المسألة إلى حدّ معيّن، واستقرّ عزمنا على عدم الاستمرار فيها بعد ذلك، وأن ننتقل إلى الفقرة اللاحقة؛ حتّى إذا بقيت بعض الأمور، فسوف نتحدّث عنها مستقبلًا إن شاء الله تعالى.

يقول الإمام الصادق عليه السلام لعنوان البصري: **فَإِنْ أَرَدتَ العِلمَ فَاطْلُبْ أَوَّلاً فِي نَفسِكَ حَقِيقَةَ العُبُودِيَّةِ**

فهذا العلم الذي يبيّنه لكم لا يحصل بالدرس والمطالعة، ولا بواسطة الحفظ؛ فهو ليس عبارة عن عمليّة تجميع للمسائل؛ كما نراه عند الكثير من الناس، حيث كان يأتي البعض منهم عند العظماء.. عند المرحوم الوالد، والسيّد الحدّاد رحمة الله تعالى عليه، ثمّ يذهبون إلى أماكن أخرى، ويستمعون في مواضع أخرى، ويقولون: «تعالوا بنا لنرى ما الذي يحدّثهذا وهذاك، ولنتعلّم مسألة هذا، ومسألة هذاك» فينتقلون من مكان إلى آخر؛ لكي يتسنّى لهم جمع بعض المسائل لفائدتهم الشخصيّة.

حكاية السيّد أحمد الكربلائيّ في مراسلاته مع الشيخ محمد حسين الكمباني الأصفهانيّ

توجد رسالة بعثها السيّد أحمد الكربلائيّ إلى أحد أصدقائه، وسنتطرّق إليها في الجلسات اللاحقة إن شاء الله تعالى، حيث كان ذلك الصديق قد طلب منه في رسائل سابقة بعض التعاليم والدساتير؛ وقد أجابه عنها السيّد أحمد الكربلائيّ رحمة الله تعالى عليه في رسائل من ضمنها هذه الرسالة؛ وقد كان السيّد أحمد الكربلائيّ إنساناً واضحاً صريحاً جدّاً، ومتحلّياً بالحرّية والنزاهة عن كافّة التعلّقات؛ خلاصة القول أنّه لم يكن في بيانه للمسائل يغضّ النظر أبداً أو يتهاون؛ ولا أعلم هل طالع الأصدقاء إلى حدّ الآن مراسلاته مع الشيخ محمّد حسين الأصفهانيّ الكمبانيّ رحمة الله تعالى عليه، والتي أوردها المرحوم الوالد في كتاب "توحيد علمي وعيني"! ولو أنّه كتاب تخصّصي ومعقّد جدّاً؛ وعلى حدّ قول المرحوم العلاّمة: لا يُمكن أن يفهم هذا الكتاب، إلاّ من درس الفلسفة والعرفان النظريّ، وتلقّى فيهما دورة كاملة؛ لكن، على أيّ تقدير، قد تكون بعض مسائله قابلة للفهم بالنسبة للكثيرين.

وخلاصة القول، كلّ من يطالع هذا الكتاب سيلاحظ بأنّه كان بذلك الحدّ مع الشيخ محمّد حسين الكمباني؛ مع كلّ ما كان يمتلكه الشيخ من مقامات عالية ومكانة رفيعة؛ فقد كان على درجة كبيرة من الصلاح، ومن أهل العبادة والمراقبة والتهجّد، صاحب مكاشفات عرفانيّة وحالات خاصّة.. لقد كان على درجة من الرفعة، بحيث لو مسكنا بأيدينا مصباحاً ـ على سبيل المثال ـ، وتفتّشنا بين الناس، لما وجدنا مثل مثله، فضلاً عن أن نجد مثل مثله؛ أجل، لقد كان بهذا الحدّ؛ لكن، مع ذلك، فإنّ بلوغ أعلى مراتب التوحيد هو أمر مختلف تماماً؛ فإذا لاحظتم، سوف ترون أنّ السيّد أحمد رحمة الله تعالى عليه كان في كلامه مع الشيخ محمّد حسين رحمة الله تعالى عليه واضحاً صريحاً جدّاً، ولم يلجأ إلى المجاملة أو المواربة أبداً،

إلى أن يصل المقام به بعد الرسالتين السادسة والسابعة[1] الكي يُصاب بالتعب والإرهاق بسبب الشيخ محمّد حسين الأصفهانيّ على الله مقامه؛ فيرى بأنّه مهما تحدّث معه، فإنّه يظلّ متشبّثًا بنفسيّاته، وقضاياه العينيّة؛ وحينئذٍ، فإنّه يُطلق رصاصة الرحمة، ويقول له:

گوش خَر بفروش و دیگر گوش خَر ** کین سخن را در نیابد گوشِ خَر

[يقول: بع أذن الحمار واشترِ أذنًا أخرى؛ فهذا الكلام لا يليق بأذن الحمار][2]

ولا يخفى أنّ الشيخ محمد حسين رحمة الله تعالى عليه كان يُراعي الأدب مع السيّد كثيرًا، ويحفظ له جلاله وعظمته؛ فيُجيبه بكلّ أدب بهذه العبارة المختصرة: «هر گردویی گردو نیست»[3]؛ ومرادُه منها: صحيح أنّك رجل عظيم، وليزمني احترامك؛ لكنّ مُحاوَرَتك ليس بالذي يقبل بهذه المسائل هو وغمض العينين. لقد كان الشيخ محمّد حسين رجلًا عظيمًا جدًّا، ومملوًّا علمًا؛ لكن، مع ذلك، فإنّ تلك المسائل [التوحيديّة] لا تتصل بالتجميع، وبالذهاب إلى هنا وهناك؛ وبحسب القول المشهور: بأن يقطف الإنسان من كلّ بستان زهرة.

الله تعالى موجود في منزلك؛ فلماذا تبحث عنه هنا وهناك؟!

في أحد الأيّام، كنّا في محضر العلّامة رحمة الله تعالى عليه، فجاء أحدهم، كان قد أتى به شخص معيّن، حيث ترجع هذه القصّة إلى عدّة سنوات قبل الآن؛ وذلك قبل ثلاثين سنة؛ فكان يقول عنه [ذلك الشخص]: «إنّ هذا الرجل يا سيّدي قام بالعديد من الأسفار بحثًا عنه [أي الله تعالى]! لقد ذهب إلى الهند وأمريكا وإفريقيا وكلّ هذه الأماكن» فكان يُردّد القول: «يا سيّدي! لقد ذهب إلى تلك الأماكن بحثًا عنه» فتبسّم العلّامة، وقال له: «فلم يكن الله تعالى موجودًا في بيته، حتّى يضطرّ للذهاب إلى الهند وأمريكا وإفريقيا؛ أفلم يكن موجودًا في بيته؟!» فهذه هي حقيقة المسألة؛ أي أنّ هؤلاء ضيّعوا الحقّ، وصاروا غافلين عن وجودهم.

---

[1] عند الرجوع لكتاب "توحيد علمي وعيني"، عثرت على هذا البيت في مضمون الرسالة الرابعة للسيّد أحمد الكربلائيّ على الله تعالى مقامه الشريف. المعرّب

[2] مراد السيّد أحمد الكربلائيّ من هذا البيت: ما دمت لم تبع أذن عالم الطبع والكثرة، فلن تحصل على أذن عالم الملكوت والوحدة؛ راجع: العلّامة آية الله السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ، توحيد علمي وعيني، ص ٢٣٢. المعرّب

[3] ترجمتها: كلّ جوزة دائريّة، لكن ليست كلّ دائرة جوزة.

سالها دلطلب جام جم ازما مي كرد ** آنچه خود داشت زبيگانه تمنّا مي كرد

[يقول: منذ سنوات والطالب يطلب منّا كأس جمشيد،[1] وتمنّى من الغرباء ما يتملكه بنفسه]

ففي الرسالة التي بعثها السيّد أحمد رحمة الله تعالى عليه إلى ذلك المريد [على حدّ قولهم] وأمره فيها ببعض التعاليم السلوكيّة، كان ذلك المريد قد سأله عن أمر آخر، وقال له: «بدّا لو تتطرّقون إلى المراقبة، حتّى يكتمل الكلام، وتكونوا بذلك قد تحدّثتم عن جميع المسائل» أو بعبارة أخرى، يكتمل الطقم؛ وقد ذكرتُ لكم أنّ السيّد أحمد كان رجلاً حرًّا جدًّا في الجواب؛ وخلاصة القول أنّه ردّ عليه بقوله: إنّ هذه المسائل لا تنحلّ بمجرّد المراسلة؛ لأجل، على أن أهنّئ سماحتك على ما تتحلّى به من ذكاء؛ لأنّك حسبتني ـ وأرجو أن أستعمل هذه العبارة ـ محامًا، ظننتَ أنّك تستطيع خداعي بكلماتك؛ وخلاصة القول، أنّك اعتقدتَ بأنّك تعرفني جيّدًا، وأنّني أساق وراء جميع الاتّجاهات، بحيث كلّ من جاءني، واستعمل معي أسلوب المداهنة، وطلب منّي الدستور الفلانيّ، فإنّني سأقبل.. لا يا عزيزي! هذا غير صحيح، ولا يوجد شيء من ذلك كلّه؛ فإذا عملتَ بمقالتك [سابقًا] فهنيئًا لك؛ وإن لم تعمل به، فإنّك لن تصل إلى أيّ شيء، ولو زيد على ذلك عشرة أضعاف.

هذه هي المسألة التي كان يهدف إليها الإمام الصادق عليه السلام؛ فالتردّد على هذا المكان وذاك المكان، واستراق السمع هنا وهناك لا يحلّ الإشكال، ولا يوصل إلى أيّ مكان؛ وقد ذكرتُ لأخوة سابقًا أنّ السيّد القاضي رحمة الله تعالى قال للبعض: «لم تعلّمتم بكلّ ما علمتم به حتّى الآن، حتّى تُريدون منّي أن أُطلعكم على ما تجهلون به؟!» وهذه مسألة مهمّة جدًّا إذا تمكّنا من فهمها، فإنّنا سنتنبّه إلى أنّنا متأخّرون جدًّا عن الالتحاق بالقافلة، حيث إنّ هذه المسألة تختلف كثيرًا عن الأفكار التي نُنمّيها في أذهاننا.

العلم الحقيقيّ ليس هو العلم الحفظيّ

ففي الفقرة الأولى، يُريد الإمام عليه السلام أن يُبيّن [لعنوان] ما هو العلم أساسًا؛ فإلى هذا الحين، كنتَ غارقًا في الظنون، وتعيش وسط الخيالات، وكنتَ تعتقد بأنّ العلم عبارة عن تجميع للمسائل؛ شأنه في ذلك شأن شريط التسجيل؛ فالآن، كم لدينا هنا من آلة للتسجيل؟ سبعة أو ثمانية تقوم بتسجيل كلّ ما أقوله؛ فحينما أنتهي من الكلام، هل سينضاف إلى شريط

[1] لعلّها: لعلّ ما هو الجواب في المعاد؛ يرجى ملاحظة ما هو المكتوب في هامش الصفحة؛ يزعم أنّه كان يملك جمشيد: كأس سحرية موسومة بالملك جمشيد الأسطوري.

هذه الآلات وقيمتها؟ لا! لأنّها مجرّد أجهزة تُدير أشرطة، وتُحوّل الأصوات عن طريق تلك الأمواج الإلكترونيّة إلى طاقة إلكترونيّة تُحفظ هنا؛ وهذا لا يزيد شيئًا من قيمة هذه الأشرطة. إنّ صدر الإنسان ليس كالشريط، بحيث يقتصر على أخذ المسائل من الكتاب الفلانيّ، وحفظها في داخله؛ ولنفرض أنّه حفظها، لكن، ماذا بعد ذلك؟ وما هي قيمة أن يسعى الإنسان لقراءة هذا الكتاب وذاك الكتاب؟ صحيح، أحيانًا، يقرأ الإنسان كتابًا، حتّى يستفيد منه مسألةً، ويعمل على تطبيقها، وتحصيل منفعة منها؛ فهذا أمر جيّد؛ أمّا أن يتعاطى لقراءة هذا الكتاب وذاك، لكي يزيد ـ مثلاً ـ من طاقته الاستيعابيّة، [فهذا أمر غير حسن]؛ هذا، وسنسعى في الفقرات القادمة للحديث عن كيفيّة بيان الإمام عليه السلام لهذه المسألة، وما الذي قاله لعنوان البصريّ بشأنها. كان العلاّمة رحمة الله تعالى عليه يقول: «إنّ بعض الأفراد يأتون إلى مجالسنا من أجل يتعلّموا بعض المسائل وحسب! ثمّ، يرحلون بعد ذلك، وينشرون هذه المسائل، وينسبونها إلى أنفسهم؛ فهؤلاء سرّاق الطريق، يأتون للاطّلاع على ما يوجد هنا وهناك، ويتعلّمون بعض المسائل، ثمّ يذهبون، وينسبونها إلى أنفسهم». إنّ العلاّمة رحمة الله تعالى عليه لا يرفض أن تُنسب إليه المسائل أو تُنسب إلى غيره؛ غير أنّ الكلام ينصبّ على ذلك المسكين الذي سنحت له فرصة استثنائيّة، وتمكّن من الالتقاء بهكذا شخصيّة عظيمة مجّانًا ومن دون مقابل؛ وعوضًا أن يستغلّ ذلك في إصلاح نفسه، فإنّه يتعلّم بعض المسائل، وينقلها للآخرين، لكي يُتاجر بها؛ وهذا هو الخسران العظيم! حيث يتّضح بعد ذلك إلى ما يؤول إليه الأمر. وعلى أيّ تقدير، فقد كان هناك أفراد يأتون عند السيّد الحدّاد رحمة الله تعالى عليه، فيقول لهم: «أيّها السيّد، إنّ المسألة لا تنحلّ بمجرّد الذهاب والإيّاب، والتردّد [على هذا المكان]!».

؛اهذه باجأف ،ةّيعمتّ ةضيق نع هلأسو ،فجنلا لضافأ دحأ هدنع عاج ،مّيلأا دحأ يف ةثحابمو راوح مهدحأ نيبو هنيب رجي هّنأ حضاولا نم ناك ثيح ،بهذو ،كلذبل ئاسلا رُسف يف هبنيعتسيّ تح ،دّادحلا دّيسلا دنع تأف ؛ةّيضقلا كلت يف أقلاع ناك هّنأو ،نّيعمسلجم يف انّنأ ءلاؤه دقتعي !دّيسلا اهّيأ» :دّادحلا دّيسلا لاق ،حرلا امنيب .بهذيو ،لاكشلإا كلذ لح

مهّنإف ،حوتفم انلزنم نّأ امبو ؛انناكم يف سولجلا على انرصتقا انّنأو ،لمعلا نع ولطاع يف لغاشلأا نم ديدعلا انيدل نّإ !يزيزع اي» :لاق ،يّلإ تفتلا مّث «انتاقوأ نم ذوخأيو ،نوتأي ،اذه يتأين أو ،رولأا هذه لكلّ محتيلا ئاسلا نم ريثكلا نلآا انيدلو ،ايندلا هذه ن إ ؟هلزنم لإ ءاج دقناك نم ولعتل هّنأ نيح يف» ...اذكهو ،رخآ يتأيو ،كاذ بهذيو

تياغ ؛مهريغصو مهريبكع يمجلا دلى أفورعم ناك هّنأ يأ ؛مكعمجأب هنوفرعتسم ،مكتربخأ يكل ،أتاتبت قولا على نورّفوتي لا ءاملعلا هؤلاء .فبر راوج لإ أقباسلا حترا هّنأ رملأا

اذإ ،لجأ ؛ئاسلا اذكه يف مهرامعأ نوضقي كلذ أدبأ مهلاجم لاو ،دحأ يأ مهيلع دّدرتي نأ لمأو ؛صلاخإ كلذ هبّحرُي مهّنإف ،قيرطلا على روثعلا ديرُي ناكو ،دحأ مهءاج «!انلافبا نيقتلا دقل» :نولوقيو ،انلا مهيلع دّدرتي كلذ لجلا دقعرولأا هذه نم نودصقي

.أتاتبتسرد ملا هذه لإ هلل يبسلا كلذ نإف «!انندع رضحتم ينلافلا ةّيصخشلا نّإ» وأ

العبوديّة أوّل خطوة للحصول على العلم الحقيقيّ

فبعد أن بيّن الإمام الصادق عليه السلام عنوان معنى العلم، بدأ في الحديث عن كيفيّة حصوله؛ وهي مسألة مهمّة، حيث نجده عليه السلام يدخل هنا في صلب الموضوع، ويقول:

«إنّ النجاة والفلاح لا يحصلان بالذهاب إلى هنا وهناك، ولا بتجميع المسائل، ولا بالتردّد

على هذا وذاك، ولا بحفظ المسائل والاحتفاظ بها في الصدر كالشريط.. لا ليس بهذا النحو!»

ففي عهد الإمام الصادق عليه السلام، كان هناك الأئمّة الأربعة، وكانوا أيضًا علماء، فكان أبو حنيفة بدوره عالمًا، وكذلك الشأن بالنسبة لمالك، وابن حنبل، والشافعيّ، فكان هؤلاء علماء؛ لكنّهم كانوا يفتقرون إلى النور، ولم يحوزوا على نور الولاية؛ وهو النور الذي يُميّز بين الهداية والضلال؛ فحينما تتشرّفون بزيارة مكّة، ستكتشفون أنّ جميع أولئك السنّة الذين يأتون، ويطوفون حول الكعبة، ويُصلّون تختلف أحوالُهم وأوضاعهم عن الشيعة الذين يتبعون الولاية، ويتّضح لكم ذلك جليًّا؛ فمع أنّهم يُؤدّون الطواف ذاته، والصلاة عينها، والسعي نفسه؛ لكنّها أعمال جافّة، عبارة عن صورة فقط من دون روح.

في أحد الأيّام، ذهبت برفقة العلاّمة رحمة الله تعالى عليه لزيارة أحد الأقارب الذين كانت لهم بنا علاقة رحميّة ماسّة جدًّا، حيث كان قد رجع من مكّة؛ فقال لنا: «يا سيّدي، حينما عُدت من هذا السفر، اصطحبت معي أذان المدينة (أو مكّة، والظاهر أنّه كان أذان المدينة)؛ فتعال لتستمع إليه؛ لأنّه جميل جدًّا!». لكنّ العلاّمة رحمة الله تعالى عليه لم ينبس ببنة شفة؛ فاعتبر عل ما يبدو أنّ سكوته دالّ على رضاه؛ ولهذا، ذهب، وأحضر آلة تسجيل، ووضع فيها أذان المدينة؛ حينما انتهى الأذان، قال العلاّمة: «أيّها السيّد، إنّه من دون روح؛ فأين هو جماله؟ أين؟ إنّه يفتقر للروح تمامًا»؛ ثمّ قال بعد ذلك: «ألم تستمع إلى الأذان الذي يُرفع هنا؟»، فقال له: «بلى، استمعت إليه»؛ قال: «إذا قارنت بين الأذانين، ستكتشف بأنّ الأذان الذي رفعه الشيعيّ له روح، والذي رفعه السنّي يفتقر إلى الروح والنور؛ وكأنّه شريط يجري على لسان إنسان»؛ أي أنّه مجرّد شريط، وصوت؛ لكن، من الذي يفهم هكذا أمور؟ صحيح أنّ هناك من يُدرك هذه المسائل؛ وهذا محفوظ في محلّه؛ إذ تجد حتّى الناس العاديّين يقولون: «يا سيّدي، إنّ هذا أحسن وأجمل وأروع من ذاك!». إنّ سرّ هذه المسألة وحقيقتها يرجعان إلى نفس المؤذّن التي أُضيئت بروح الولاية ونورها؛ ولهذا، وكما أشرت آنفًا، فإنّنا نرى العديد من العظماء والعلماء يقعون في الخطأ بسبب قصورهم عن إدراك المسائل الغيبيّة، على مستوى القضايا التي يتحتّم على الإنسان فيها أن يكون مطّلعًا على تلك المسائل، لكي يتمّكن في التعرّف على الطريق؛ فنجدهم يسقطون في الأخطاء، بل وأحيانًا يقودون المجتمع إلى سبيل الانحراف؛ وهنا، تزداد أهمّية المسألة، وترتفع درجة المسؤوليّة كثيرًا.

وفي هذه الحالة، يُريد الإمام الصادق عليه السلام أن يقول: «ما الذي تُريد فعله الآن؟

فحينما عرفت ما هو معنى العلم، وتعرّفت على طريقي الهداية والضلال، يأتي السؤال عن كيفيّة الحصول عليه؛ فماذا علينا أن نفعل حتّى نظفر بهذا النور؟ وما الذي نقوم به حتّى نتوصّل إلى ذلك العلم؟ فهو غير متوفّر في كلّ متجر؛ وهو ليس كالخضروات، حتّى يتسنّى لك أن تسأل عنه في كلّ مكان، وتقول: أعطني يا سيّدي كيلوغرامًا واحدًا منه! فهذا ليس هو

شأنه، حيث نجد الإمام عليه السلام يضع بين أيدينا هذه المعادلة التي ينبغي علينا العمل وفقها، ويبيّن لنا طريق الوصول إلى هذا العلم؛ فأوّل مرحلة هي:

«إذا أردت أن تظفر بهذا العلم، عليك أوّلاً أن تُحقّق في نفسك مسألة العبوديّة، وتصل إلى حقيقة العبوديّة؛ وإلاّ، فلن تجني أيّة فائدة»؛ مهما كان المكان الذي ذهبت إليه؛ وهذا هو مقتضى كلام الإمام الصادق، وليس كلامي أنا! أي أنّه عليه السلام يقول: «[هذه هي شروط] الظفر بهذا العلم؛ وأمّا إذا أردت التشبّه بشريط التسجيل، والوصول إلى تلك المحفوظات، فلا يهمّ أبدًا المكان الذي تذهب إليه». وتُلاحظون الآن أنّهم يضعون مكتبة كبيرة جدًّا في قرص مدمج واحد ذي حجم صغير جدًّا؛ مع أنّ هذه المكتبة قد تضمّ أربعة آلاف كتاب؛ فلا يوجد إشكال في أن تذهب لأيّ مكان ترغب إليه من أجل تحصيل العلم "الحفظيّ"، حيث لدينا في هذا المجال ماهرٌ وأمهر، وخبيرٌ وأخبر؛ بخلاف العلم الآخر الذي لا يُمكن العثور عليه في أيّ مكان، ولا يتسنّى لنا أن نجده عند أبي حنيفة أو الشافعيّ؛ وهو علمٌ لا يوجد عند أيّ متلبّس بهذا اللباس، أو أيّ مدّعٍ للتصدّي للهداية كيفما كان؛ فهو علم... لأنّ المسألة واضحة جدًّا؛ فالعلم يعني النور والضياء والهداية؛ وأمّا الشريط، فحينما يُسجّل صوتي، فإنّه نوره لا يزداد، كما أنّ لونه يبقى على حاله؛ فإذا فرضنا أنه كان بنّيًا أو أحمر، أو أصفر، أو غير ذلك، فإنّ لونه سيظلّ كما هو، ولن يُضاء، أو يشعّ بالنور، ولن ينضاف إليه أيّ شيء؛ فشأن ذلك العلم شأن هذا الشريط؛ ولهذا، عندما يظفر الإنسان ببعض المحفوظات، فإنّ ذلك لا يكون سببًا في توهّج قلبه بالنور، او إضاءته؛ ومن هنا، عليه في المرحلة الأولى أن يتحقّق في نفسه بحقيقة العبوديّة.

ما هي حقيقة العبوديّة

لكن، ما هي حقيقة العبوديّة؟ إنّها عبارة عن عدم رؤية الإنسان نفسه صاحب التصرّف، وأوّله الاستقلال في التأثير وفي اتّخاذ القرار والقيام بأي الأعمال. هذا هو معنى حقيقة العبوديّة. فالعبد يرى نفسه من النواحي الشرعيّة والعقليّة والعرفيّة واقعًا تحت تصرّف مالكه ومولاه؛ فلا يُمكنه مغادرة الدكّان من دون إذنه، ولا يتسنّى له الذهاب إلى أيّ محلّ من نفسه ومن دون إجازة مالكه، ولا يستطيع حتّى الكلام إلّا بإذن مولاه، ولا ينبغي له إجراء أيّة معاملة من دون إجازة المولى؛ فتجده دائمًا يشعر في نفسه أنّه أمام علاقة تُسيطر عليه؛ فيقول مع نفسه: إذا أدّيت هذا العمل، سأتعرّض للمحاسبة؛ وإذا قمت بذاك العمل، سيُعاقبني مولاي؛ وإذا تحدّثت بهذا الكلام، وإذا أجريت هذه المعاملة، وإذا ذهبت إلى ذلك المكان، وإذا، إذا، إذا...؛ فتفرض عليه هذه الاشتراطات وضعيّة خاصّة، بحيث تجده يسعى ـ مهما أمكنه ـ إلى الاطمئنان بأنّ فعله وكلامه وعمله لم يكن مخالفًا لرأي مولاه؛ فهذا هو العبد؛ فالإمام عليه السلام يُريد أن يقول: «إنّ طريق الوصول إلى هذا العلم يتمثّل في أن تكون في البداية عبدًا» لماذا؟ لماذا ينبغي أن تكون عبدًا؟ إذا تذكّر الإخوان، فقد أشرت في إحدى الجلسات السابقة

إلى أنّ النور هو الحقّ: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ}[1]؛ ويقول البارئ عزّ وجلّ في آية أخرى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}؛ أي أنّه تعالى النور والحقيقة التي ينشأ منها عالم الملك والملكوت، والغيب والشهادة، والباطن والظاهر؛ كما يقول في موضع آخر: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}؛ ومن هنا، فإنّ النور عبارة عن الحقّ؛ والحقّ هو الأمر الذي يُميّز بين الباطل وغيره؛ وبالتالي، فإنّ هناك صراع دائم وحرب مستمرّة وخصومة لا تفتر بين النور والكثرة، وبين الحقّ والباطل، وبين الربّ واستقلاليّة الإنسان؛ ودائمًا سيكون الأمر بهذا النحو؛ فالله تعالى يقول: «إمّا أن أكون أنا هنا، أو تكون أنت؛ فواحد منّا ينبغي أن يكون؛ فإذا كنت أنا حقًّا، وكان كلامي حقًّا؛ فلا يجب عليك أن تتكلّم؛ وأمّا إن كنت ترى نفسك أنت هو الحقّ، فإنّني سأتنحّى جانبًا، وسوف يتبيّن غدًا من هو الحقّ؛ فأنا سأتنحّى جانبًا، ولتفعل كلّ ما يحلو لك!».

لدينا رواية تقول إنّه إذا صلّى الإنسان، وبدأ يسبح حين الصلاة في خيالات أخرى؛ فيتجوّل في أنحاء العالم، ويجمع الشيكات والكمبيالات و...، ويضعها بأجمعها في البنك، وينهمك في الإمضاءات؛ وهكذا، إلى أن ينتهي من قوله: «ولا الضّالّين»، فإنّ الله تعالى يقول له: حسنٌ جدًّا، لقد قمت بجولة رائعة، وسافرت إلى كلّ مكان، ووحدي أنا الذي لم تأتِ عنده! لا مشكلة في ذلك؛ فقد خصّصتني بواحد في المائة فقط من صلاتك، واقتصرت على قراءة هذه الكلمات؛ فأنا أشرك، وجعلت الآخرين شركاء لي بتسعة وتسعين مائة من تلك الصلاة! اعلم أنّني شريك جيّد؛ إذ ينبغي على الشريك أن يكون جيّدًا يا سيّدي، هل تعلم ذلك؟ وعليه أن يكون متساهلًا عند وقوع الخلافات؛ فإنّني أهب حصّتي لبقيّة الشركاء؛ فيا ملائكتي! اذهبوا، واضربوا على رأس هذا العبد بتلك الصلاة، وقولوا له: خذ الجميع لك! فإذا أردنا أن نُصبح شركاء، فلنتشبّه في ذلك بالباري عزّ وجلّ، ولنكن مثله متساهلين يا سيّدي! ولا نُصعّب الأمر على أنفسنا.. {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ}[2]؛ فالله تعالى يقول: أنا شريك جيّد؛ ولهذا، فإنّني وهبت حصّتي لبقيّة الشركاء. حسنًا، لا توجد أيّة مشكلة، اذهب واركض في هذين اليومين اللذين بقيا لك في هذه الدنيا! ونحن لن يكون لنا معك الآن أيّ شغل؛ ففي نهاية المطاف، ستنقضي هذه الأيّام، وسيتوقّف هذا الحصان السريع عن الركض؛ وعندئذ، ستتبيّن النتيجة حينما نجتمع مع بعضنا: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ

---

1. سورة الحجّ، صدر الآية ٦٢.

2. سورة آل عمران، صدر الآية ٥٤.

التغابن}[1]؛ ففي ذلك الوقت، حينما يكشف لنا النقاب عن ذلك اليوم، فإنّنا نستكشف ما هي الأمور التي ضيّعناها، وما هي الأشياء التي انخدعنا بها في الدنيا، وما هي النعم التي فرّطنا فيها؛ وهناك، سيسخر الله تعالى منّا،[2] ويقول: «لم يكن لنا بك شأن في هذه الدنيا، فأهملناك، وصبرنا عليك، وكان صبرنا عليك كبيرًا جدًّا؛ فما أكثرهم الذين جاؤوا، واستعرضوا قواهم، وتقلّبوا في البلاد، وصكّوا الأسماع بقولهم: نحن كذا وكذا، نحن سنفعل كذا وكذا، يجب أن يصير هنا بهذا النحو، وهناك بذلك النحو؛ والعجيب هنا أنّه: حينما يُريد الله تعالى أن يمكر بأحد، فإنّه يقوم بشيء يمنعه من الاهتمام بمسائله الشخصيّة؛ وفي هذه الحالة، لا يُعد بوسع القيام بأيّ شيء.

فيوجد تعالى بعض الأمور التي تفضي بالإنسان لأن ينسى قضاياه الخاصّة.. هل تعلمون ماذا تُشبه هذه المسألة؟ تُشبه تمامًا أن ينتاب الإنسان ألم، فينتبه إليه مباشرةً؛ وإذا ازداد هذا الألم، فإنّه يذهب عند الطبيب؛ لكن، ولو أنّ أحدهم حقنه بمادّة مخدّرة حين ازدياد الألم، لذهب عنه الألم في الحين؛ ثمّ تمضي بعض الساعات بهذا النحو؛ إلى أن يبدأ الألم بالظهور تدريجيًّا؛ فما إن ينتبه الإنسان إلى أنّه ظهر مجدّدًا، حتّى يحقنوه مرّة أخرى؛ وهكذا، الحقنة تلو الحقنة؛ حتّى يتفاجأ بأنّ ذلك العضو قد فسد.. ذلك العظم مثلاً؛ وهذا هو معنى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ}؛ فلا ينبغي علينا أن نغفل عن هذه الآية أبدًا أيّها السادة! {وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ}؛[3] هل تعلمون ماذا يعني ذلك؟ يعني أنّه يُصيب الإنسان بالخدر؛ فما إن يبدأ بالإحساس بالألم قليلًا، حتّى يُرسل له مالًا؛ وما إن يتألّم قليلًا، حتّى يُنزل عليه نعمةً، أو يتسبّب في حصول أمرٍ ما، وهكذا، يُرسل، ويُرسل، إلى أن يأتي عزرائيل، ويقول له: تفضّل معنا الآن؛ ومن هنا، لا ينبغي علينا أن ننخدع ببعض المسائل والأحداث؛ فهي بأجمعها عبارة عن حقن إلهيّة مخدّرة؛ إذ ما الذي يُريده الله تعالى من هكذا أمور؟ فهذا الذي يعنيه {خَيْرُ الْماكِرِينَ}؛ أي أنّه تعالى يبتلي الإنسان، بحيث يغفل تمامًا عن الألم والدواء في الوقت ذاته؛ فنبقى ملتهين بأنفسنا. يقول الله تعالى: إمّا أن يكون هذا مكاني أنا، أو مكانك أنت! إذا

---

[1] سورة التغابن، صدر الآية ٩.

[2] لتفسير معنى السخريّة، بحيث لا يُؤدّي ذلك إلى نسبة النقص إلى الله تعالى، لا بأس أن نستعين بالرواية التالية: علي بن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه عن الرضا علي بن موسى عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ {سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} وعن قول الله عزّ وجلّ {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} وعن قوله {وَمَكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ} وعن قوله {يُخادِعُونَ اللَّهَ وهُوَ خادِعُهُمْ} فقال: «إن الله تبارك وتعالى لا يسخر ولا يستهزئ ولا يمكر ولا يخادع، ولكنّه عزّ وجلّ يُجازيهم جزاء السخريّة وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر والخديعة؛ تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا». المعرّب

[3] سورة آل عمران، ذيل الآية ٥٤.

رغبت أن يكون مكاني أنا، فلا ينبغي عليك أن تستعرض نفسك؛ وإذا أحببت أن يكون المدار على دوري أنا، فلا يجب أن يبقى لك أيّ وجود، أو أيّ استقلال؛ ولا يتعيّن أن يبقى لك أيّ رأي في مقابل رأيي أنا؛ فنحن لا نجتمع مع بعضنا.. يقول الله تعالى: لا نجتمع معاً؛ لماذا؟ لأنّ حقيقته الواحدة هي المتحقّقة فقط في عالم الوجود؛ أجل، يبقى أنّه تعالى يتحلّى بالإنصاف إلى درجة أنّه لو كانت هناك حقيقتان في عالم الوجود، فقال تعالى: علينا أن نُقسّم الأمر بيننا، بل سأهبك ذلك النصف أيضاً! فلو كان هناك إلهان، أو ثلاثة أو عشرة آلهة، لما أشكل علينا الأمر؛ لكن، بما أنّ حقيقته الواحدة هي التي ملأت دار الوجود، فإنّه لا يبقى لغيره أيّ مجال؛ ومن هنا، إذا أتينا، افترضنا لأنفسنا غيريّة في مقابله، فإنّ هذه الغيريّة لا تجتمع معه؛ ولهذا، ففي كلّ موضع يكون هو، فإنّ العبوديّة هي التي ينبغي أن تكون معه؛ والعبوديّة تعني تسليم كافّة الأمور والقضايا إليه.. إلهي، نحن لا نفهم ولا نعلم شيئاً، ولا نمتلك أيّ شعور أو إحساس، ولا نتوفّر على أيّ وجود أبداً؛ فنحن لا شيء، ونحن متمحّضون في الفقر والفاقة والبؤس والشقاء؛ فهذا هو شأننا. فإذا رآنا الله تعالى بهذا النحو، وبأنّنا نشعر في وجودنا بأنّنا لا نمتلك شيئاً، ولا استقلال لنا أبداً، وأنّنا لا نقول: «إلهي أنا في هذا المقام أفهم أحسن منك؛ فتشخيصي للأمور هنا هو بهذا النحو، وعملي هو بهذا الشكل» ففي هذه الحالة، سيتقدّم هو؛ لأنّ المفروض أنّ المسألة منحصرة فينا نحن الإثنين: إمّا أنا أو هو؛ فالقضيّة مانعة الخلوّ، بل هي مانعة الخلوّ ومانعة الجمع في الوقت ذاته، أي أنّها منفصلة حقيقيّة؛[1] فهل يُمكن أن يكون لدينا عدد زوج وفرد في نفس الآن؟ من الواضح أنّه لا يُمكن؛ لأنّ العدد إمّا زوج أو فرد؛ فالصفر ليس بعدد، والواحد فرد، والإثنين زوج، والثلاثة فرد، والأربعة زوج؛ وهلُمَّ جرَّاً. ففي هذه الحالة، هل يُمكنكم أن تعثروا على عدد يكون زوجاً وفرداً في نفس الوقت؟ محال! كما أنّه من المستحيل أيضاً أن تجدوا عدداً لا يكون زوجاً ولا فرداً في الوقت ذاته. إنّ حالنا مع الله تعالى هو بنفس هذا النحو؛ ففي كلّ موضع، إمّا أن يكون هو أو نكون نحن؛ فإذا لم نكن نحن، يكون

[1] المراد في علم المنطق من القضيّة مانعة الجمع هي القضيّة الشرطيّة المنفصلة التي لا يجتمع طرفاها في الإيجاب؛ كأن نقول مثلاً: «إمّا أن يكون الإنسان جالساً أو قاعداً»؛ إذ لا يُمكن أن يكون الإنسان جالساً وقاعداً في الوقت ذاته. وأمّا القضيّة مانعة الخلوّ، فهي القضيّة الشرطيّة المنفصلة التي لا يرتفع طرفاها في الإيجاب؛ مثال: «إمّا أن يعيش الحيوان داخل الماء أو خارجه»؛ لأنّه لا يخلو الحيوان من هاتين الحالتين. وأمّا القضيّة الحقيقيّة، فهي القضيّة الشرطيّة المنفصلة التي لا يجتمع طرفاها ولا يرتفعان في الإيجاب؛ نظير «إمّا أن يكون العدد زوجاً أو فرداً»؛ فلا يُمكن أن يكون العدد زوجاً وفرداً في نفس الوقت، ولا يُمكنه أيضاً ألاّ يكون زوجاً أو فرداً في الوقت ذاته. المعرّب

سفنبو ،هو وإذا كنّا نحن، لا يكون هو؛ سفنبو الملمقدار الذي يكون فيه نحن، لا يكون فيه هو، هو المقدار الذي يكون فيه هو، لا يكون نحن؛ وهذا هو معنى العبودية.

العبودية نوعان: عبودية في بداية الطريق، وعبودية في نهايته

أيّها السيّد! ألا تبحث عن الهداية؟ ألا تبحث عن النور؟ إنّ هذا النور يتنافى مع وجودك واستقلالك واستكبارك ومعارضتك؛ فاذهب وكن عبداً أوّلاً؛ هذا المقدار يدخل تحت قدرتك واستطاعتك؛ وحتّى إذا قلت: إلهي، لا حيلة لي، وليس بيدي أي سبيل؛ فإنّ الله تعالى سيقول: لا يهمّ ذلك، وأنا لا شأن لي بك، كما أنّني لن أحاسبك على هذا الأمر؛ فأنا أتعامل مع عبادي بحسب قدرتهم وطاقتهم ومقدار تحمّلهم؛ وأنا أعلم بأنّه لا سبيل لديك، هذا أمر صحيح؛ لكن، بوسعك أن تكون عبداً كحدّ أقلّ؛ فهل يدخل هذا المقدار تحت قدرتك، أم ستقول بأنّه خارج أيضاً عن استطاعتك؟ فأنت تقدر على تجنّب الكذب، والتحرّز عن الهتان والغيبة، واختزان الكلام اللغو، وتستطيع أن تُحجّم نفسك في الاختلاط مع الناس، ويمكنك ألا تخوض في الكلام الذي لا يعنيك؛ فهل تقدر على ذلك أم لا؟ هذا، مع أنّ العبودية التي يبينها غيري؛ فهل تقدر على أن تكون عبداً؛ مع أنّ العبودية التي تقوم مقام الرسالة؛ هي التي يتحدّث عنها الإمام الصادق في البداية لا يُراد منها نفس العبودية التي تُمثّل آخر الطريق.

الرسالة، والرسالة لا تأتي قبل المسألة: **أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**؛ فمسألة العبودية هي المسألة الأولى، وهي التي تُساوي شرور الدنيا من دون العبودية؛ ففي ذلك الكتاب المنسوب إلى الفضيل بن عياض، يقول الإمام الصادق عليه السلام: **العُبُودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهُهَا الرُّبُوبِيَّة**[1]؛ أي أنّ العبودية جوهرة

ذات قدرة إذا فتقناها، وفتحنا تلك الصدفة، فإنّنا سنرى في داخلها باطنها الربوبيّة؛ لماذا؟ لأنّ العبودية تعني الفقر المحض؛ والعبد يُساوي اللاشيء، ويُعادل الاحتياج المطلق؛ فالعبد هو الوجود الإمكاني الذي لا يملك من نفسه أيّة إرادة أو اختيار، وتكون شرارة وجوده وشؤونه الوجودية الإنسان الذي لا يملك من نفسه أيّة إرادة أو اختيار، وتكون شرارة وجوده وشؤونه الوجودية الإنسان الذي لا يصل الإنسان منكم بأجمعها في ظهور الحقّ تعالى؛ فهذا هو الذي يُقال له عبد؛ ولا يصل الإنسان إلى هذه المرتبة، إلاّ حينما يحلّ الله تعالى محلّ نفسه فعله كلامه وسلوكه.. **«كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ»**[2]؛ وما جاء في ذلك الحديث القدسي الذي يقول الباري تعالى فيه: **«لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ»**

---

1. مصباح الشريعة، ص ٧.
2. بحار الأنوار، ج ١٠٢، ص ١٦٦.

فهذه العبوديّة تأتي في نهاية الطريق، وليس في بدايته؛ هي لا تكون «الَّذي يبصِرُ به» مطلوبة في البداية؛ لأنّها تكون في ذلك الحين متعذّرة.

تزكية النفس وسيلة لتحقيق العبوديّة

يقول الإمام الصادق عليه السلام: عليك أوّلاً أن تكون عبداً، فتسعى للتزكية؛ والتي من دونها، لا يُمكن للإنسان أن يحصل على ذلك النور؛ ولا فائدة من ذلك بتاتاً؛ إذ من المستحيل أن يرتكب الإنسان المعاصي، ثمّ يتوقّع من الله تعالى أن يهبه ذلك العلم؛ ومن المحال أن يرغب الإنسان في الدنايا وزخارفها، ثمّ يتوقّع أن يُضاء قلبُه؛ فهذا أمر مستحيل، ولا ينبغي أن نُفكّر فيه بتاتاً؛ لأنّ التفكير فيه هو بحدّ ذاته أمر زائد؛ ولهذا، فإنّه أمر محال جملةً وتفصيلاً؛ أي أنّه لا يحتاج إلى التفكير؛ فلا يُمكن أن يلهث الإنسان وراء المال والشهرة وتكديس الثروات وأمثال ذلك طلباً للدنيا، ثمّ يتوقّع أن يستنير قلبُه، ويتمكّن من إدراك الحقائق؛ فهذا أمر مستحيل ومستعصٍ.

منزل دلنیستجای صحبت اغیار ** دیو چو بیرون رود فرشته درآید

[يقول: ليس القلبُ مكانًا لاجتماع الأغيار؛ فإذا خرج الشيطان، دخلته الملائكة].

فلا يجتمع الشيطان والملك في قلب واحد، ولا يُمكن حلول حقيقتين متضادّتين في موضع واحد، ويستحيل وجود الظلمة والنور معًا في محلّ مشترك.

يقول العلاّمة رحمه الله تعالى عليه: في أحد الأيّام، كان أحد العظماء من أهالي مازندران يُقدّم وصايا لأحد أصدقائه كان يُريد التشرّف بزيارة الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام؛ وحينما أراد السفر بقصد الزيارة، قال له: «بلّغ سلامي للإمام الرضا عليه السلام، وقل له إنّ فلان حاجة عندك، فما هو جوابها؟» هكذا، على نحو الإشارة! فقال العلاّمة رضوان الله تعالى عليه: فسافر ذلك الصديق، وذهب لزيارة علي بن موسى الرضا عليه السلام، فبقي هناك بضعة أيّام؛ بالمناسبة، فقد نسي الرسالة التي أمره ذلك العظيم بإيصالها إلى الإمام عليه السلام؛ إلى أن حلّ آخر يوم ذهب فيه للحرم المطهّر من أجل التوديع وقراءة زيارة الوداع؛ ففي تلك اللحظة، رأى بأنّ حالته تغيّر فجأة، وأنّ الخدّام قد أتوا، وبدؤوا يقودون الناس إلى خارج الحرم؛ فلم يبق أيّ أحد منهم في الفضاء الدائري المحيط

---

[1] «لا يَزالُ العَبدُ يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتّى أحِبَّهُ؛ فإذا أحبَبْتُهُ، كُنتُ سَمعَهُ الَّذي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبصِرُ بِهِ، ولِسانَهُ الَّذي يَنطِقُ بِهِ» مجامع السعادات، محمد مهدي النراقي، ج ٣، ص ١٤٥.

بالضريح وتحت قبّته؛ وظلّ هو واقفاً بذلك الحنو. وحينما غادر الجميع، رأى فجأة بأنّ باب الضريح قد فُتح، وخرج منه الإمام الرضا عليه السلام، والتفت إليه قائلاً: «لا فلان! اذهب إلى رفيقك، وقل له:

آينه شو وجمال پری طلعتان طلب ** جاروب زن خانه و پس میهمان طلب

[يقول: كن مرآةً، ثمّ ابحث عن جمال الوجوه الملائكيّة؛ واكنس بيتك، ثمّ ابحث عن الضيف]

فقال الإمام عليه السلام هذا الكلام، ثمّ رجع إلى داخل الضريح؛ فعاد ذلك الشخص إلى حالته الطبيعيّة، فرأى بأنّ جميع الناس موجودون في أمكنتهم، وهم منهمكون في أداء الزيارة؛ مما يدلّ على أنّها كانت عبارة عن مكاشفة حصلت له. ثمّ إنّه قفل راجعاً إلى مدينته، وحينما ذهب لزيارة ذلك العالم، حكى له تلك القصّة؛ فتبيّن فحوى الرسالة التي كان بعثها الإمام، وكذلك الأسلوب الذي أجاب به عليه السلام، حيث كان يُريد أن يقول له: مع كلّ هذا الصدأ الذي يعلو قلبك، هذه التعلّقات الدنيويّة التي تتملكها، لا ينبغي أن يخطر على بالك أبداً وصالنا، ولا يجب عليك أبداً أن تتمنّى لقاء المحبوب؛ لأنّه في مقام طاهر وصافٍ ونقيّ وخالٍ من الكدورة؛ فلا يُمكنك الوصول إليه بالنظر إلى هذه الحالة التي تعيشها؛ فعليك أن تلجأ للتزكية؛ ومن هذا، نجد بأنّ أوّل مسألة تحدّث عنها جميع العظماء ـ منذ سالف الأيّام ـ هي التزكية، والتي اعتبروا فيها ثلاث مراحل: الأولى التخلية، والثانية التجلية، والثالثة التحلية.

ويُراد من التخلية أن يعمل الإنسان على تنقية قلبه من جميع أنواع الصدأ والكدورة والظلمة، تلك المسائل التي استحوذت عليه، ووقفت حاجزاً بين الإنسان وبين النور والانبساط، واحدة واحدة. وأمّا المرحلة الثانية، فهي مرحلة التجلية، حيث تأتلمس تجلّيات الحقّ تعالى في ذات الإنسان وقلبه؛ إلى أن يصل إلى مرحلة التحلية، فتصير هذه التجلّيات ملكة بالنسبة إليه؛ فهذه هي أوّل مسألة؛ إذ ما دامت الكدورات النفسانيّة مستقرّة في القلب، لا يُمكن لذلك العلم وتلك الحقيقة النورية أن تنكشف للإنسان.

يقول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم: **«مَن اقتَرَفَ ذَنباً فارقَهُ عقلٌ لَم يَعُد إلَيهِ أبداً»**[1] أي أنّ هذا الذنب يتسبّب في انتفاء حصّة من حصص الإنسان الوجوديّة، وانعدامها؛ فلا تعود تلك الحصّة أبداً؛ فقد يتوب الإنسان في اليوم الالحاق، وهذا أمر محفوظ في مكانه؛ غير أنّ تلك الحصّة التي انعدمت آنذاك لا ترجع بتاتاً؛ لأنّ اليوم الالحاق له حسابه الخاصّ، وتلك الحصّة المختصّة به؛ وذلك لأنّ الوجود الذي وهبه الله تعالى للإنسان يقع في مقابل مجموعة من المسائل والنتائج التي تتوزّع عليه؛ فبمقدار ما يتنفع الإنسان من هذه الثروة

[1] جامع السعادات، ج ١، ص ٦٧.

[الوجودية]، فإنّه يُحصّل [أكثر] من تلك الصحّة؛ وأمّا إذا لم يتمكّن من الانتفاع منها، فإنّه لا يحصل على أيّ شيء من تلك الصحّة؛ ومن هنا، فإنّ ذلك الذنب يتسبّب في ضياع هذه الصحّة وسلبها.. لَمْ يعُدْ أبداً! فالذنب كدورة، والكدورة لا تجتمع مع النور. فمنذ البداية، كانت جميع الوصايا العظماء للسلاّك تنصبّ على الدقّة في المراقبة، والحرص على العمر، والتحفّظ عليه، والمحافظة على الأفعال والتصرفات التي تصدر من الإنسان في هذا العمر؛ فكانت المسألة بهذا النحو ومنذ البداية، حيث لُحظ التأكيد على ذلك في الوصايا التي وردتنا عن الآخوند الملاّ حسين قلي الهمدانيّ رضوان الله تعالى عليه؛ بل أحياناً، قد تكون غفلة واحدة سبباً في حرمان الإنسان من إحدى النعم.. غفلة واحدة!

في أحد الأيّام، كان السيّد القاضي رحمة الله تعالى عليه جالساً بحضرة تلامذته؛ فدار الكلام حول ضرورة محافظة السالك على نفسه من التفرقة والتشتّت، ولزوم انشغاله بنفسه، بحيث لا ينبغي عليه أن يشغل قلبه بما يحصل هنا وهناك؛ إذ من الطبيعي أنّ تقع مجموعة من المسائل والأحداث من دون أن تكون لنا أيّة دخالة في ذلك؛ كأن يصيبنا هنا شجار، وهناك عراك، وفي ذلك الشارع حادثة سير، وتلك المدينة سقوط الأمطار، وفي المدينة الأخرى هطول الثلوج مثلاً، لكن ما هو شأننا نحن بسقوط الثلج والأمطار هنا وهناك، وبوقوع حادثة في الشارع؟ هل إنّ اطّلاعنا على هذه المسائل يزيد فيها شيئاً؟ أو يجلب لنا نفعاً؟ وإلاّ، فلا إشكال في ذلك؛ إذ من الجيّد أن يسعى الإنسان العاقل إلى تحصيل كلّ ما فيه نفعه، لكن، إذا كان هذا الشيء لا توجد فيه أيّة منفعة، أليس من الأفضل ألاّ نشغل به أذهاننا؟ وبعد ذلك تحدّث السيّد القاضي عن السكوت؛ ففي بعض الموارد، يحصل الإنسان بواسطة هذا السكوت على حالات لا يُمكنه أن يُحصّلها من غيره؛ ثمّ توقّف رحمة الله تعالى عليه عن الكلام قليلاً؛ فسمع أصوات طقطقة تأتي من الخارج؛ فقال لهم: حتّى هذه تلحق ضرراً بالسالك؛ أي مجرّد

تلك الطقطقة؛ إذ من الممكن أحياناً أن يكون السالك في حالة يتوجّب عليه فيها أن يكون مستغرقاً في نفسه، بحيث إنّ أدنى التفات يُؤدّي إلى حرمان هذا النفس من ذلك النور وتلك الجذبة؛ فلاحظوا هنا مقدار دقّة هذه المسائل؛ هذا، مع أنّ تلك الحالات لا تعود مرّة أخرى؛ وحتّى إذا عادت، فليس بتلك السرعة المطلوبة.

هذا، ناهيك عن أن يأتي الإنسان، ويرتكب معصية، حيث إنّ الأمر هنا يتعدّى مجرّد الطقطقة؛ وذلك كأن يغتاب أحداً، أو يرميه ببهتان، أو يقضي ساعة من وقته في الكلام الذي لا طائل منه.. نرجو من البارئ عزّ وجلّ أن يمنحنا جميعاً توفيق الشعور بآلامنا، لكي نعلم

حينئذٍ ما الذي نقوله؛ وعلينا بأجمعنا أن نطلب هذا التوفيق منه سبحانه، وأن يهبنا الشعور ببؤسنا وآلامنا؛ فنحن الآن لا نحسّ بذلك، ونقول مع أنفسنا: لا يوجد لدينا أيّ نقص والحمد لله!

وجميع أمورنا جيّدة ومنتظمة، والجنّة في قبضتنا، والملائكة خاضعة لأوامرنا؛ ولهذا، فإنّ تلك المسائل لا تخصّنا نحن، بل ترتبط بأناس آخرين. وأمّا إذا أراد البارئ عزّ وجلّ - لا قدّر

الله تعالى!- أن يمنحنا ذلك الشعور والإدراك، وتعلّقت مشيئته بهذا الأمر، فإنّ الملامح سوف

تتبدّل، والكلام سوف يتغيّر؛ وفي ذلك الحين، لن يكون بمقدور النافوّه بأيّ كلام، أو القيام بأيّ عمل كيفما كان.

هو هذا هو الهدف من المسائل التي ذكرها الإمام الصادق؛ أي أنّه عليه السلام يُريد من هذا وأن يثلاثين أو أكثر من ذلك أن يفتح الباب، أو نقول: يا أيّها الإنسان! ليس باستطاعتك أن تُعمّر أربعين أو ستّين سنة؛ فإذا كان من المفروض أن تقضيها بهذه الكلمات [الفارغة]، فإنّها تنتهي، لكن، ماذا بعد ذلك؟! انظروا الآن إلى السنة التي مرّت عليكم، ولاحظوا ما هي المسائل التي استمتعتم إليها في هذه السنة؛ وأنا أتحدّث بجدّ! كأن نفرض مثلاً أنّ هناك جهازاً يُسجّل كلّ ما سمعتموه على وقته؛ وذلك عن طريق بعض الأسلاك والصمامات الثنائيّة التي تُوصَل بالدماغ، بحيث يُقال إنّ الدماغ يُسجّل كلّ المسائل التي يسمعها الإنسان من دون أن يُضيّع منها شيئاً؛ أو اعتقد بأنّ هذه الأوراق والدفاتر ستختزن الشيء الفلاني! ففي هذه الحالة، إذا طلعتم هذه العشرة آلاف أو الستمائة ألف أو الخمسين ألف صفحة، هل ستجدون فيها عشر صفحات مفيدة؟ إن وجدتموها، دلّوني عليها! وإن اكتشفتم أنّكم استمعتم إلى عشرة صفحات ذات فائدة، أخبروني بذلك! فقط عشر صفحات! وابدؤوا الحساب من هذه الليلة؛ لا إلى ليلة الثالث عشر من رجب في السنة القادمة؛ أي ليلة ولادة أمير المؤمنين عليه السلام، والتي نرجو منه بكرمه أن يلتفت إلينا، ويمنحنا الشعور بهذا الألم.. بنفس ذلك الألم الذي كان يحسّ به، بل هذا غير ممكن بتاتاً؛ فليمنحنا الشعور بواحد من الألف منه، أو بواحد من المليون من ذلك الألم الذي كان يدفعه لمغادرة منزله، والتوجّه نحو بساتين النخيل، والتعرّض لحالات الإغماء المتكرّرة؛ هذا، مع أنّنا لا نحتاج في ذلك إلى مغادرة منازلنا، بل يكفي أن نبقى فيها، ولا نحتاج للذهاب إلى بساتين النخيل، ولا الجبال، ولا نستيقظ ساعة واحدة قبل الأذان؛ فلا الصحاري والقفار.. لا يا عزيزي! بل البقاء في بيتك جالساً على السجّادة النائمة، حيث النسيم العليل؛ فهم يقبلون منّا حتّى هذا المقدار؛ أدنى درجة كبيرة من العظمة؛ فإذا منحونا واحداً بالمليون من ذلك الألم لتلك القافلة، فستلاحظون كم هو الفارق بين ننتنا السابقة، وننتنا اللاحقة؛ ستروننا في سنة واحدة فقط! فإذا طلعنا تعالى الأولياء، فأفلا نجد من ضمنها المراقبة؟ تندرج تحت المراقبة مسألة المحاسبة؛ بمعنى أنّ على الإنسان أن يُراجع حينما يُريد الذهاب إلى النوم جميع أعماله اليوميّة؛ فإذا كانت موافقة لرضا الله، فعلى ما يرام؛ فهذا أمر! ثمّ بعد ذلك، يذهب لينام؛ وإذا كانت مخالفة لرضا تعالى، يستغفر، ويشكره؛ وحينئذٍ، علينا أن نرى ما هي الأعمال التي قمنا بها في السنة الفارطة؛ فحينما شاركنا في المجلس الفلاني، ما هو الكلام الذي سمعناه فيه؟ وما الذي قلناه هناك؟ وبماذا تحدّثنا إلى الله، وما هو الكلام الذي ذكرناه في غيبة فلان؟ وما هو الكلام الذي ذكرناه في غيبة علاّن؟ فلنراجع تلك الأحداث، واحداً واحداً؛ لكي نتأكّد هل كانت أعمالنا صحيحة، أم لا؟ هل جنينا منها فائدة، أم أنّنا لم نحصل منها على أيّة

نتنسلا يف انلاحلا يتسيّلأ ! ولنعقد العزم على أن نكون أوفياء لهذه السنة من عمرنا المنعقدة ؛ فهذه السنة هي سنة السابقة واللاحقة ؛ فماذا نعني بهذا ؟ هذا هو معنى العبودية !

وحين نسعى لطلب العلم ، فإنّ ذلك شرطٌ ؛ أي علينا أن نمتلك العبودية ، فإذا امتلكنا العبودية ؛ فإنّ ذلك يأتي بالتدريج ، الواحدة تلو الأخرى ، ستمتدّ ؛ فإذا امتلكنا الحقائق الثابتة ؛ فإنّ ذلك يؤدي إلى الارتقاء في المقامات العالية ؛ وهذه المقامات تتأدّى ، إلى أن تصل إلى تلك المقامات العالية والرفيعة جدًّا ؛ والتي نرجو من الله تعالى أن يُمسك بأيدينا حتّى نصل إليها .. تلك المقامات التي فيها ما **لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.**

نرزقنا الله تعالى ذلك في هذه الليلة المباركة والميمونة بحقّ هؤلاء الطاهرين الذين جاؤوا إلى هذه الدنيا ، وقضوا فيها أيّامًا قلائل ، ووصلوا إلى مبتغاهم ، وجعلوا كلّ همّهم منصبًّا على الأخذ بأيدي الآخرين ، وإيصالهم إلى الهدف المنشود ؛ ومع ذلك ، لم يُصغِ همّهم أيّ أحد ، ولم يتمكّنوا من استيعاب كلماتهم ، بل اتّخذوها هزؤًا ولعبًا ، وتركوهم لوحدهم ، ولم يتّخذوا منهم قدوة ؛ فنرجو من الباري عزّ وجلّ أن يُوفّقنا ، لكي نقضي هذين اليومين المتبقّيين من عمرنا في الأمور الفارغة والعبثيّة ، أو ننشغل بعناية عظماء الولاية الإلهيّة الأمير المؤمنين ، وسيّدة نساء العالمين ، الصدّيقة الطاهرة بضعة الرسول المصطفى ، وأولادهما المعصومين ، لا سيّما حضرة بقيّة الله أرواحنا له الفداء ، وعلى آله الطيّبين الطاهرين ، وصحبه المنتجبين ، وأزواجه أمّهات المؤمنين ، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام .

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ